الملامح العامة لمشروع التربية الروحية والدينية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال الكتاتيب القرآنية

General features of the spiritual and religious education project of the Association of Algerian Muslim Scholars through Quranic schools

إسلام حب الدين*
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج
doctorantislam@gmail.com

مليكة النوي
جامعة باتنة 1 الحاج لخضر
malikaislam@gmail.com

تاريخ الإرسال:16-02-2022 تاريخ القبول: 03-04-2022

ملخص:

تسعى هذه الورقةُ البحثيَّةُ إلى الحديثِ عن الملامحِ العامَّةِ لمشروعِ التربيَّةِ الرُّوحيّةِ والدِّينِيَّةِ لجمعيةِ العلماءِ المسلمينَ الجزائريّينَ من خلالِ المدارسِ والمعاهدِ والمطابِعِ والمجلاتِ والجرَائدِ والمساجدِ والنوادِي والكتاتِيبِ القُرآنِيَّةِ.

إذ تعدُّ هذه الأخيرةُ محورَ دراستنا في هذه الورقةِ البحثيَّةِ؛ مُحاولينَ الوقوفَ على أبرزِ الجوانبِ الإصلاحيَّةِ والطُّرُقِ التَّرْبَوِيَّةِ لهذه المدرسة من خلال الكتاتيب التي ساهمت بشكل كبير في تحقيقِ النُّهوضِ الإسلاميّ والحفاظ على طابعِ الهويّة الإسلاميّة ومبادئ اللغة العربيّة، فكانت -بحقٍّ- مدرسةً نهضويَّةً تجديديّةً صاعدةً هزّتِ النُّفوسَ الرَّاكِدَةَ وحرَّكتِ العقولَ الجامِدَةَ. حيث استمدّ علماؤها أعمالهم من صميم جذورنا العربيّة الإسلاميّة وفق خطةٍ تربويةٍ دينيّة روحيّةٍ: قاعدتُها الإسلامُ والعروبَةُ؛ قِوَامُهَا العملُ الجماعِيُّ؛ صراطُها التَّوعِيَّةُ والتَّرْبِيَّةُ؛ هدفُها الوِحْدَةُ والحُرِّيَّةُ؛ منهاجُهَا القرآنُ والسُّنَّةُ؛ فأعدُّوا لها -بحقٍّ- بناءً متينًا واستعدُّوا لها بالعلمِ والعملِ، وأزهرتْ غَرْسًا طَيِّبًا، وبزغَ مجدُها في العالمِ الإسلامِيّ أجمعْ؛ فكانتْ جذوةً وسراجًا منيرا يَهتدِي بهِ المُصلحُونَ، من أجل إحياء الناشئة في تعلّمه ونظامه وأساليبه...؛ جملة من القضايا نحاول التطرق إليها.

الكلمات المفتاحية: مشروع التربية الروحية والدينية؛ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ كتاتيب قرآنية؛ هوية إسلامية؛ لغة عربية؛ تربية وتعليم.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

This research paper seeks to talk about the general features of the project of spiritual and religious education of the Association of Algerian Muslim Scholars through schools, institutes, printers, magazines, newspapers, mosques, clubs and Qur'an writings.

As the latter is the focus of our study in this research paper; Trying to find out the most important aspects of reform and the educational methods of this school through the writings that contributed greatly to achieving the Islamic revival and preserving the character of the Islamic identity and the principles of the Arabic language. Its scholars derived their work from the core of our Arab and Islamic roots, according to a spiritual, religious, educational plan: the basis of which is Islam and Arabism. Its strength is collective action; Its path of awareness and education; Its goal is unity and freedom; Its curriculum is the Qur'an and Sunnah; So, rightly, they prepared for it a solid building and prepared for it with knowledge and work, and it blossomed by good planting, and its glory dawned in the entire Islamic world. It was a flame and a luminous lamp that guided the reformers, in order to revive the young in his learning, his school, his system and his methods ... A number of issues we are trying to address.

Keywords: Spiritual and Religious Education Project; Algerian Muslim Scholars Association; Quranic Writings; Islamic Identity; Arabic Language; Education.

المقدمة

يشكل التعليم سر الحياة الحقة، والإنسان محور رئيس، ومحرك فاعل في تركيبة العملية التعليمية التعلمية، يسعى دوما بفكره إلى التأمل والنظر ليغير وليطور لتحقيق الأفضل. هذا التفكير يعبر عن حاجة الإنسان إلى الرقي إلى أعلى المراتب حيث العطاء والإبداع.إن سؤال العلم طُرح وما يزال يُطرح، من نعلّم؟ ماذا نعلّم؟ كيف نعلّم؟ لماذا نعلّم؟ لأن البحث في هذا السؤال مرتبط في جوهره بهذا الكائن العاقل المفكر الناطق، من هنا فإن علماء التربية وعلماء النفس والاجتماع عكفوا على معرفة ما يربط هذه الأسئلة، وما الأهداف التي يحققها الفعل التربوي بعد الإجابة عن هذه الأسئلة وتطبيقها ميدانيا، ما جعل هذه الأسئلة مصدرا لحوار مثمر وصراع مفاهيمي طال مصطلحي التعليم والتعلم. وقبل أن نلج دروبا شائكة، ونقطع مسافات طويلة، فإننا سنصغي إلى همس اللغة المعجمية التي نستنجد بها لتوضح لنا معنى الكلمة المحورية في هذه المداخلة" الكتاتيب" وقد حدثتنا أن الكتاتيب: ج م كتّاب، كتب-خط، كتّب الولد- علمه الكتابة.

الكتّاب مكان صغير لتعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن، والجمع: كتاتيب. يتعلم في الكتّاب: موضع التعلم الأولي، ويطلق خاصة على مدارس تعليم القرآن وتحفيظه. والكتّاب بهذه البنية الصرفية هي موضع تعليم الكتّاب[1]، وما دامت الكتاتيب مكانا للتعليم فمعنى ذلك أن الكتّاب تدل على من يُعَلمُون وهم الصبيان أو الغلمان، وهذا ما أورده ابن المنظور في لسان العرب نقلا عن الكامل للمبرد «المَكْتَب: موضع التعليم، والمُكْتِب: المعلم، والكتّاب: الصبيان؛ قال: ومن جعل الموضعَ الكتّاب فقد أخطأ»[2].

1- نشأة الكتاتيب عند العرب والمسلمين:

نحاول في هذا العنصر أن نسترشد بما قاله المستشرق (دييس) في دائرة المعارف الإسلامية: إن التعليم في مدارس الأطفال "الكتاتيب" «كان أقدم من التعليم الذي جاء به الإسلام؛ بحيث إن الطفل الجاهلي كان يلقن مبادئ القراءة والكتابة، وكذلك كان الأمر في صدر الإسلام، وكان ليهود المدينة أثر واضح في تعليم أطفال العرب»[3]. والدليل على اهتمام عرب الجاهلية بالتعليم وجود من كان يتقن القراءة والكتابة، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل العلم فدية مقابل إطلاق سراح أسرى بدر، على أن يعلم كل واحد منهم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة. فانظر أيّ رؤية تربوية نهجها المصطفى صلى الله عليه وسلم !وأيّ استراتيجية عسكرية طبقها على من مكنه الله منهم! فهو لم يُطِل سجنهم ليسجن علمهم معهم، ولم يقتلهم ليذهب علمهم معهم، بل منحهم الحياة مقابل منحهم هم حياة العلم لغيرهم، فكان هذا العلم مفتاحا لقراءة القرآن وفهمه وتدبره.

بهذا التخطيط التربوي، وبهذه السياسة الحكيمة سار المصطفى صلى الله عليه وسلم بأمته نحو التحضر والرقي. كما نتوسل بالحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه عن

1-ينظر: ابن منظور، [د. ت]، لسان العرب، المجلد الأول، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 504.

2- المصدر نفسه، ص 506.

3- دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، (1913م)، ج3، مجموعة من المستشرقين، ص 411.

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أيما مؤدب ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين»[1]. فالدعوة صريحة إلى ضرورة تعليم أبناء الأمة والأخذ بأيديهم إلى بر الحياة الحقة، وإلى شاطئ النجاة حيث يكون طلب العلم فرض عين على كل فرد. وبلغ الاهتمام بالعلم أن أنشؤوا في المدينة (دار القرآن) إذ كان بعضهم يقيم فيها ليحفظ القرآن الكريم، ويتعلم ما تيسر له من العلوم التي تعينه على فهم القرآن وتدبره.

ومع الفتوحات الإسلامية عمل الفاتحون على إنشاء الكتاتيب في الأمصار التي فتحوها، فانتشرت الكتاتيب بصورة واضحة، وساهمت بشكل فعال في انتشار القراءة والكتابة. مستغلة رغبة الكثيرين في حفظ كتاب الله، وفهمه وتطبيقه. ما جعل المعلمين آنذاك يعتمدون على التلقين والاستظهار؛ إذ يقوم المعلم بقراءة آية من القرآن ليرددها الأطفال، وتتكرر هذه العملية حتى تحفظ الآية، وإذا كان الطفل قد تعلم أبجديات الكتابة والقراءة فإنه يدوّن الآية على اللوح أو الجلد أو الحجر حسب المتعارف عليه في المنطقة، فإذا حفظها محاها، على أن يلقى ماؤها في مكان طاهر.

2- الكتاتيب في الجزائر إرث ثقافي وتاريخي:

شكّلت المؤسسات التربوية القديمة في الجزائر قاعدة متينة حفظت اللغة العربية، وساهمت في تحفيظ القرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم والتعريف بسيرته العطرة، وهذه المؤسسات شملت المساجد والكتاتيب والرباط والزوايا وغيرها، وإذا حاولنا أن نعيد عجلة التاريخ العربي الإسلامي إلى الوراء فسوف نتوقف عند بدايات التعليم كيف كان، إذ تشير المصادر إلى أن الاهتمام بالتعليم بلغ أوجه في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدل دليل على ذلك أن الأنصار عندما أراد كل منهم أن يستضيف الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته، ولأخلاقه وسمو أفعاله لم يرد أن يفضل أحدهم

1- محمد بن سحنون، (1972م)، كتاب آداب المعلمين، تح: حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة: محمد لعروسي المطوي، [د. ط]، منشورات دار الكتب الشرقية، تونس، ص43.

على الآخر، فقال مشيرا إلى الناقة دعوها فإنها مأمورة، واتخذ من مكان مبركها أول مسجد ومدرسة في تاريخ الإسلام، ليؤسس صلى الله عليه وسلم عهدا جديدا، إنه عهد العلم والمعرفة والنفع، وليستثمر بعد ذلك آيات الذكر الحكيم الداعية إلى طلب العلم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ خلق الإنسان من علق﴾ اقرأ وربك الأكرم﴾ الذي علم بالقلم﴾ علم الإنسان ما لم يعلم﴾...﴾[1]، ولما كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قدوة لأصحابه، فقد ركبوا سفينة النجاة عندما ساروا على دربه، ولمَ لا؟! وهو الذي شجع على طلب العلم، وجعل العلماء ورثة الأنبياء. ليصبح وجود الكتاتيب واقعا رافق معظم المجتمعات المسلمة ومنها الجزائر، إذ عكف المتعلمون على تعلم القرآن واللغة العربية، ولم تستطع معظم الدول الإسلامية الاستغناء عنها، بل تراها حجر الأساس لما سيأتي من تعليم، وهنا نستحضر تلك الذكريات التي أشركنا فيها أحمد أمين في كتابه (حياتي) وهو يستذكر أيامه مع الكتاتيب «وقد وضع لي أبي برنامجا مرهقا لا أدري كيف احتملته، كان يوقظني في الفجر فأصلي معه، ثم أقرأ جزءا من القرآن وأحفظ متنا من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك في النحو، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ولبست ملابسي وذهبت إلى المدرسة أحضر دروسها إلى الظهر، وفي فسحة الظهر أتغدى على عجل وأذهب إلى كتّاب بمسجد شيخون قريب من المدرسة وقد اتفق أبي مع فقيه الكتّاب أن يسمع مني جزءا من القرآن حتى إذا ما أتممته سمعت جرس المدرسة فذهبت إلى الفصل»، وعلق أحمد أمين على هذا البرنامج المرهق أن الأب كان حائرا في طبيعة ونوع التعليم الذي يختاره لابنه، أيدرسه في المدارس المدنية أم الدينية؟ ولعله مشكل لكثير من الآباء؛ لأن الكتاتيب- كانت وماتزال- تشعرنا بانتمائنا الإسلامي العربي لاهتمامها بتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم، فكلاهما بلسان عربي مبين، وبذلك يظل ذكر الكتاتيب ملء الآذان، ويظل الاعتزاز بها ملء المشاعر، ما جعل بعض الصيحات تتعالى بإصلاحها لتساير ركب التعليم الحديث. وهنا نشير إلى أن الاستعمار الفرنسي للجزائر قد حارب كل مظاهر التعليم، وكل مظاهر التحضر والتقدم، فهذا الشعب الأبي لم يكن أميا كما يعتقد بعضهم إذ ذكر "روزويت" الذي كان مصاحبا للحملة الفرنسية أن الجزائري «ربما كان يملك من التعليم

1- [سورة العلق/ الآيات: 1 – 5].

أكثر مما يملك الشعب الفرنسي، إذ إن كل فرد من أفراده يعرف القراءة والكتابة والحساب»[1].

ولعل ما قامت به فرنسا من عمليات الهدم والتحويل التي طالت كثيرا من المدارس والمساجد لدليل على سياسة خطط لها قبل الغزو، وسعى من خلالها إلى إحداث القطيعة بين هذا الشعب وموروثه التاريخي واللغوي والديني، بل إن فرنسا قامت بما قام به المغول (التتار) في بغداد، إذ تعمدت إتلاف المخطوطات التي تعد إرثا إنسانيا. هكذا بدأ التعليم في الجزائر يتدهور، وأصبحت الهجرة العلمية سمة ميزت فترة الاحتلال الفرنسي إذ هاجر المعلمون والأساتذة بحثا عن أعمال أخرى، وطالت هذه الهجرة أيضا المتعلمين من مختلف المستويات. وللتأكد من ترسيخ هذه السياسة ظهرت الجمعيات التبشيرية المسيحية مثل: الآباء البيض والأخوات البيض، ما جعل الحاكم العام (لافيجري) يؤكد على تعليم اللغة الفرنسية ونشرها إذ يقول: «إنني أؤكد لكم أنكم بالعمل على تقريب الأهالي إلينا بتعليم الأطفال، وتقديم الإحسان للناس جميعا فإنكم ستقومون بخدمة فرنسا، إن فرنسا لا تنجب كثيرا من الرجال لتعمير الجزائر، وعليه وجب أن نعوض ذلك بفرنسة المليونين من برابرتنا المستعمَرين»[2]. إن هذه العملية تهدف إلى تحقيق بعض من مخطط الاستعمار، إذ إن فرنسة المجتمع الجزائري تعني إحداث المسخ لهوية هذا المجتمع وتحقيق الإدماج، وهو ما قابلته جمعية المسلمين الجزائريين بالرفض، وعبر عنه مؤسس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من رام إدماجا لـــه رام المحال من الطلب

1- أندري روشي وآخرون، (1984م)، الجزائر بين الماضي والحاضر، تح: رابح اسطمبولي، ومنصف عاشور، [د. ط]، الجزائر، ص211.

2- عبد الباسط دردور، (2002م)، أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي الغربي، دراسة وصفية تحليلية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى، ط1، طرابلس، ليبيا، ص286.

3- بواكير التعليم الواعي في الجزائر:

يمثل التعليم الواعي مسرحا تتسابق الأمم لتحقيقه؛ لأن العقل الإنساني تواق إلى البحث والاستكشاف، وإلى العلم والمعرفة والنفع، وهذه الرغبة حاجة إنسانية تهدف إلى إثبات الذات لكينونتها، وممارسة حقها في التميز والتفرد عن باقي الكائنات. ولا ندعي هنا أن التعليم والتعلم مرتبطان بالإنسان؛ بل إن الحيوان بتنوعه وتعدده يمارسهما، ولعل الفارق أن الإنسان استطاع أن يطور حياته وأن يبدع، ليبقى الحيوان محافظا على ما يضمن له الاستمرارية والبقاء.

وسنحاول في هذا المقام أن نركز على الحركة الثقافية في الجزائر في أثناء الاحتلال الفرنسي، وعلى دور المؤسسات التربوية في المحافظة على اللغة العربية، خاصة دور المدارس القرآنية (الكتاتيب) وكذا دور المساجد الذي لم ينحصر في أداء الصلوات وحل النزاعات وإصلاح ذات البين، بل كانت منارة فكرية علمية دينية أمدت الجزائريين بطاقات روحية مكنتهم من التزود بما يمكنهم من المحافظة على هويتهم التي حاول الاستعمار الفرنسي محاربتها والقضاء عليها، سواء عن طريق الحملات التبشيرية تحت غطاء تقديم خدمات إنسانية، أو عن طريق إنشاء مدارس فرنسية ظاهرها خدمة التعليم في الجزائر وامتصاص الأمية والنهوض بالفكر الجزائري وتطويره، وباطنها ضرب للهوية ومحاربة الإسلام؛ إذ يذكر إيفون تيران أن سياسة الاستعمار الفرنسي كشفت عن نفسها بعد دخولها إلى الجزائر مباشرة وهو ما ذكره حاكم وهران الذي قال: «عندما أقمنا بالعاصمة أخذنا المدارس كي نحولها إلى مخازن أو ثكنات أو اسطبلات، ووضعنا أيدينا على أملاك المساجد والثانويات، وزعمنا أننا نطبق على الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، لكن للأسف لم ير المسلمون في ذلك إلا هجوما على دينهم»[1].

فهذا اعتراف بأن الجزائر كانت لها حواضر علمية في تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر وغيرها، وأن الحكم العثماني في الجزائر رغم ما عليه، إلا أنه ترك بصماته في

1- إيفون تيران، (2007م)، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبية والدين 1830- 1880) تح: محمد عبد الكريم أوزغلة، مراجعة: مصطفى ماضي، [د. ط]، دار القصبة للنشر، الجزائر، ص128.

مجال التربية والتعليم؛ إذ ذكر بعض المستشرقين أن عدد المساجد قبل الغزو الفرنسي بلغ مئة وستة مساجد جمعت بين التعليم وتأدية الصلوات.

فالهوية العربية الإسلامية كانت المستهدف الأول ضمن السياسة الفرنسية في الجزائر؛ لأن يقين فرنسا ألاّ شيء يمهد الطريق لاستعمار الجزائر بلادا وعبادا إلاّ ضرب هويتها.

4- الكتاتيب القرآنيّة:

إن الحديث عن الكتاتيب في الجزائر يقودنا إلى أن نورد ما ذكره الجنرال (بيدو) عن عدد المساجد والمدارس والكتاتيب التي كانت تزخر بها قسنطينة «وعند الاستيلاء عليها -قسنطينة- عام (1837م) كان يوجد بها خمسة وثلاثون مسجدا، وسبع مدارس تتسع لعدد من التلاميذ يتراوح بين (600 و700) يتلقون فيها تعليما فوق التعليم الثانوي، بالإضافة إلى دروس أخرى كان يلقيها أشخاص ذوو سمعة واسعة، يحضرها جمع غفير من الطلاب والمستمعين حتى لَتَغُصَّ بكثرتهم المساجد»[1].

فالمساجد لعبت دورا محوريا في تحفيظ القرآن وتدعيم اللغة العربية والمحافظة عليها. أما عن المرحلة الأساس في التعليم وهي المرحلة الابتدائية، فإن تقرير (بيدو) يشير إلى أنه «وفي نفس الفترة* كانت بالمدينة تسعون مدرسة ابتدائية يتردد عليها (1350) طفلا لم يبق منهم سوى ستون شابا يتابعون تعليمهم الثانوي، أما عدد المدارس اليوم فقد انخفض إلى ثلاثين، كما انخفض عدد التلاميذ إلى (350)»[2].

إن المتأمل لهذه الأرقام يدرك حجم الخطر الذي ينتظر الجزائريين، ويدرك حجم المسؤولية التي كانت تنتظر المهتمين بشؤون التربية والتعليم في الفترة الاستعمارية.

5- الملامح العامة لمشروع الجمعية:

1- عبد الحميد زوزو، (1984م)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، [د. ط]، الجزائر، ص209.

* (فترة الاستيلاء على قسنطينة 1837).

2- المرجع نفسه، ص 209.

لم يكن المشروع النهضوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وليد حيثيات عارضة، وإنما هو نتاج تظافر عديد من الظروف والعوامل التي ساهمت الكتاتيب في رسم المدرسة ومعالمها وفق نواميس كبرى شكّلت منارات للاحتذاء والاتباع، نبرزها فيما يلي:

1.5- المحافظة على الهوية الجزائرية:

إن وعي أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بضرورة نشر التعليم لم يتوقف عند الزوايا والكتاتيب، بل امتد إلى إنشاء المدارس، إذ رأى مؤسسو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن لا خلاص من الاستعمار إلا بالعلم. وردًّا على أولئك الذين اعتقدوا أن الإسلام قد خمدت جذوته في الجزائر، وأنها مسيحية بفعل الحملات التبشيرية، ففي ذكرى مرور مئة عام على استعمار الجزائر أقيمت الاحتفالات والمهرجانات، وتناوب الخطباء الفرنسيون على إلقاء كلمات كانت كالسم على نفس كل جزائري حرّ أبيّ، ومما جاء في خطاب أحدهم «ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام في هذه الديار. كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بهذه المهرجانات فقال: إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد، وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»[1].

إن مثل هذه التصريحات تفندها كل الأعمال التي تبدو خيرية من المستعمر، كفتح مدارس للتعليم وإنشاء مستشفيات للعلاج وبناء مصانع للإنتاج، إن مثل هذه المشاريع وغيرها ما هي إلا غطاء وقناع لسياسات تخريبية استدمارية مبيتة. بل لم يتوقف المستعمر عند هذه الأعمال إذ فتح أبواب الهجرة للأوروبيين نحو الجزائر مع توفير الحياة الرغيدة لهم بمنحهم أجود الأراضي الزراعية بعد أن سلبت من أصحابها الأصليين.

وأمام هذه السياسة الظالمة وجد الجزائريون أنفسهم بين مطرقة المستعمر وسندان الفقر والجهل والمرض، فعملوا على إفشال هذه المخططات، وحملت جمعية

1- علي الصلابي، جمعية العلماء المسلمين في الجزائر- مراحل النشأة والكفاح- من مقال نشر في https//: blogs.aljazeera.net/blogs، تاريخ النشر: 1/4/2018، اطلع عليه: 2020/1/19.

العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها مواجهة هذه الحرب التي تراها روحية نفسية فأكدت على التربية ومجالاتها ممثلة في تنمية الجسم، وتهذيب العقل، وتثقيف الفكر. كما ركزت على الحفاظ على مكونات الهوية الوطنية ممثلة في: المكونات المعرفية والعاطفية والسلوكية. أما المعرفية فتضم السمات والخصائص المميزة للشخصية، إضافة إلى الذاكرة الجماعية والجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية، إذ تعمل هذه المكونات المعرفية على اتحاد المجتمع. أما المكونات العاطفية فهي نتيجة حتمية للمكونات المعرفية التي تعمل على إيجاد قاعدة تمهد لتلك العلاقة الحميمة التي تربط بين الفرد والوطن، وعليه فالمكونات المعرفية والعاطفية مكملة لبعضها، ولولا إيمان الفرد بالوطن ومعرفته به وحبه له لماَ نشأت هذه العاطفة التي تشده إليه. أما المكونات السلوكية فترتبط بالمكون الأول والثاني، وترى أن ما يربط الفرد بوطنه هو الذي يحدد أفعاله وسلوكاته وتصرفاته، من هنا يعمل الواقع الاجتماعي على تنشئة وتربية أفراده تربية تغرس حب الوطن من خلال تقديسه والاعتزاز بلغته وثقافته، هذه الثقافة التي تشكل مرجعا للهوية الوطنية و«تصبح -الثقافة- عنصرا من عناصر الهوية أساسا، وعنصرا من عناصر بلورة القومية التي هي بدورها عنصر أساسي لتكوين الهوية والحفاظ عليها»[1].

والمتأمل لمجمل ما صدر عن أعضاء جمعية العلماء يجد الاهتمام الكبير بكل ما يحقق التوازن داخل المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة الحساسة من تاريخه، إذ لم يكتف أعضاؤها بجوانب التعليم في الكتاتيب أو المدارس، بل امتد اهتمامهم إلى الرعاية الصحية والتكفل التربوي والنفسي، هدفهم تقديم الإنسان النموذجي الذي يدرك أن حمل السلاح لا يعني قتل العدو، ولكن يعني قتل ثالوث الموت: الجهل و الفقر والمرض، ويدرك أن محاربة المستعمر تعني الثورة ضد الاستبداد وأشكال العنصرية والتفرقة.

1- عبد الكريم غلاب، (1998م)، أزمة المفاهيم وانحراف الأفكار، ط1، سلسلة الثقافة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص39.

2.5- المحافظة على طابع الهوية الإسلاميّة:

كانت فرنسا تسعى لتحقيق غرضها المزعوم ألا وهو طمس الهوية الإسلامية؛ إذ ترى أنه لا بد من إزالة العائق الأساسي الذي يقف أمامها والمتمثل في بعض الزوايا والكتاتيب والمساجد والشيوخ والعلماء الذين يملكون السلطة الروحية في المجتمع ويمثلون حصون الأمّة، حيث كان تركيزها على منطقة القبائل بكثرة -زعما منها- أنهم لا ينتمون إلى أصل بقيّة السّكان، ولهم لغة تختلف عن لغتهم، وحتى في الدين فإنهم لا يدينون بدين واحد رغم اعتناقهم للإسلام، انطلاقا من مبدأ مفاده أن الإسلام فُرض عليهم بالقوة، وانطلقوا أيضا من موضوع حرمان المرأة من الميراث ليصلوا إلى هذه النتائج، ولهذا ارتأت فرنسا أن تبدأ الغزو عن طريق القبائل بإرسال الآباء البيض والمبشرين والقساوسة...، وما يحملونه من مشاريع ومؤسسات خيرية وطبية في ثوب الإنسانية، ليشمل بعدها نشاطهم الخسيس التعليم، حتى يتمكنوا من التغلغل وسط المنطقة والسيطرة على نفوس كثير من الأهالي، إلا أنّ تدبيرهم كان تدميرا عليهم وشهد شاهد من أهلها، وخطّ بأنامله -الكاردينال لافيجري- بعد 1870م عندما تأكد من فشل هذه السياسة قوله: «إننا خسرنا في منطقة القبائل ما حققناه في لبنان»[1].

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يتّقي الشتم يشتم

فقد يهون على ذي المروءة فقد ماله، ولكنه لا يرضى بفقد شرفه وعزّته ودينه، فسرعان ما أبدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مروءتها ومقاومتها ودفاعها عن القيم والمبادئ السامية وهويتها الإسلاميّة بإنشاء الكتاتيب القرآنيّة والزوايا وعقد المحاضرات والحلق، وإلقاء الخطب وتوعية الناس بالخطر الذي تحمله هذه السياسية العفنة وفضح مخططات الطامعين المنبوذين[2]. فكانت نهضة إسلاميّة –بحقٍّ- في وجه فرنسا وقساوستها، وكانت هذه الدّعوة التي نادى بها علماء الجمعيّة، مؤسسة كاملة متعدّدة الاختصاصات؛ كأنّها أنشأت لتكون بديلا يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته ظروف

1- ينظر: محمد سي يوسف، (2008م)، العامل الديني في مقاومة الاستعمار الفرنسي، رسالة المسجد، ع: 08، السنة السادسة، ص 31 و32.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص 64 و65.

الفشل، بل هي عصب المجتمع الإسلاميّ في الجزائر وروحه، فهي التي حافظت على البنية الاجتماعيّة، وعلى تماسك الأسرة والفرد والمجتمع من خطر التنصير.

وقد كان هدف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنشود واضحا في تربية النشء على الإسلام الصحيح والثبات عليه، وتوعية الشعب ورفع الجهل عنه، حيث أسّست بذلك مكاتب ابتدائية إسلاميّة تعلّم الدين، ولغة الدّين، وإقامة دروس علميّة إسلاميّة تشمل التفسير للكتاب الحكيم وتجويده، و الحديث الشريف، و الفقه المختصر وغيره، والعقائد الدينيّة، و الآداب والأخلاق الإسلامية، و العربيّة بفنونها كالمنطق والحساب وغيرها...[1]، وقد تضاعفت جهود علماء الجمعية ضد هذا الفجور الاستعماري الصليبي في تأسيس المدارس القرآنية وإلقاء الخطب الدينية وعقد الحلق والمحاضرات لتكوين جيل يعود إلى ما كان عليه أسلافه.

3.5- المحافظة على مبادئ اللغة العربية:

لقد عمل الاستعمار الفرنسي بكلّ ما أوتي من قوة على طمس اللغة العربيّة في الجزائر ومحو كلّ ما هو عربي، وسنّ في ذلك القوانين، وأجبر التعليم بالفرنسية، وجعلها لغة رسمية في شتى ميادين الحياة، وضايق مدارس العربية ومعلّميها؛ حيث ركّزت فرنسا جهودها على نشر التعليم بالفرنسية، وتسويقها في فضاء الإعلام والثقافة، وتشجيع الهجرة إلى فرنسا[2].

ولقد فطنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لمكائد الاستعمار، فعملت على إفشالها وذلك بإحياء التعليم العربيّ وبثّه في صفوف الناشئة ونشره في الزوايا والكتاتيب القرآنيّة، وإنشاء المدارس العربيّة الحرّة التي لا تتبع الإدارة الاستعماريّة، فقطعت شوطا

1-ينظر: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، (1406هـ/1985م)، ج4، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الدينيّة، الجزائر، ص 67 و68.

2- ينظر: عبد جاسم الساعدي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتأثيراتها الفكرية في النهضة الجزائرية، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، تاريخ النشر: 2000/4/3م، اطلع عليه: 2020/1/22م.

كبيرا في ذلك رغم العراقيل والمعوقات لتخترق قوانين المسخ والاغتراب، والتصدي لمشاريع الاستعمار وأساليبه، ونهضت بنشاطاتها وأعمالها المتعدّدة وبخاصّة الكتاتيب، فكانت – بحقٍّ- نافذة رحبة تطل من خلالها حركة الإصلاح التي حمل لواءها ثلّة من العلماء للتعريف بدور الجمعية وأهدافها وحضّ الجزائريين على التّعلّم والمعرفة ونشر اللغة العربيّة[1].

كما شجعت الكُتَّاب والمثقفين والمتعلمين على كتابة المقالات وإنشاء القصائد ونشرها في جرائد الجمعيّة، ولم تستسلم لتهديد فرنسا وعقوباتها وقوانينها الجائرة، يقول عبد الحميد بن باديس: «قد فهمنا -والله- ما يراد بنا، وإنّنا نُعلن لخصوم الإسلام والعربيّة أنّنا عقدنا على المقاومة عزمنا، وسنمضي -بعون الله- في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كلِّ ما يصيبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا. وإنّنا على يقين من أنّ العاقبة –وإن طال البلاء- لنا، وأنّ النّصر سيكون حليفنا، لأنّنا قد عرفنا إيمانا، وشاهدنا عيانا، أنّ الإسلام والعربيّة قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلّهم على محاربتها»[2]. وقد كوّنوا بذلك كوكبة من الطّلاب البارزين في الثقافة والأدب والشّعر والخطابة، ذوي أفكار صحيحة، وعقول نيّرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة، وقد وصفهم البشير الإبراهيمي بقوله: «رأيت شباناً ممن تخرج على يدي هذا الرجل -(يعني ابن باديس)- وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة ومعان بليغة وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، ورأيت جماعة أخرى منهم وقد أصبحوا يُحبّرون المقالات البديعة في الصحف والمجلات، وآخرون يعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس

1- سليم محجوبي، منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الاهتمام باللغة العربيّة، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، تاريخ النشر: 2013/5/18م، اطلع عليه: 2020/1/22م.

2- آثار ابن باديس، ج4، ص 128.

في نهضة إسلامية عربية في الجزائر، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تُناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر»[1].

وقد كان إحياء اللغة العربية من أهمّ ما أُسِّست له جمعيّة العلماء، إذ يقول الإبراهيمي: «إنّ جمعيّتكم هذه أُسِّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربي مسلم بهذا الوطن مكانةٌ لا تساويهما مكانة، وهما: إحياء مجد الدِّين الإسلاميّ وإحياء مجد اللغة العربيّة»[2]؛ لأنّ إحياءها إحياءٌ للدِّين في نفوس أهله، وبيانَها بيانٌ لمحاسنه، قال ابن باديس: «... لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، ولا تعليم له إلا بتعليم لُغته»[3].

هذا ما قدّمته الجمعيّة من صنائع العروبة، وتذرعت بكل ما أوتيت من وسائل للحفاظ على اللغة العربية في الجزائر، وأوصلت رسالتها بدءًا من دروس محو الأمِّية، إلى تحفيظ القرآن في الكتاتيب، إلى تدريس علوم اللُّغة في مدارسها، إلى إلقاء المحاضرات والندوات وأسمار الأدب والشعر... وغيرها.

4.5- العناية بالتربية والتعليم:

أدرك الاستعمار الفرنسي منذ وطئت أقدامه أرض الجزائر، أرض العلم والعلماء خطورة الرسالة التي تؤديها المساجد والزوايا والكتاتيب في المحافظة على شخصية الأمة، حيث أدركت أن هذه المراكز لم تعد قاصرة على أداء العبادات فقط، بل أصبحت مراكز للتربية والتعليم، فعملت بكل ما أوتيت على إخماد جذوة العلم ونوره، فدمّرت المساجد والزوايا والكتاتيب، بل وصل بها الأمر إلى تحويلها إلى إسطبلات وثكنات وحصون

1- علي محمد الصلابي، التخطيط الرشيد والرؤية المستقبلية لنهضة الجزائر في لقاء الشيخين ابن باديس والبشير الإبراهيمي، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، تاريخ النشر: 2019/1/2م، اطلع عليه: 2020/1/22م.

2- أحمد طالب الإبراهيمي، (1997م)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ص 133.

3- آثار ابن باديس، ج4، ص 126.

وكنائس...، وفي مقابل ذلك فتحت أمام أبنائها مدارس بديلة زعما منها أنها الأفضل في تعليم أبناء الجزائر ورفع مستواهم العلمي والثقافي، لكنها تضمر من خلالها تجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلاميّة، ومحاولة إدماجه في البوتقة الفرنسية، وقتل الروح الوطنية...

ورغم كل العقبات التي فرضتها إدارة فرنسا للحدّ من نشاط المدارس والكتاتيب التي فتحتها الجمعيّة خلال الثلاثينيات؛ إلا أن الجمعية نجحت كثيرا في نشر التربية والتعليم في صفوف أبناء الأمة الجزائرية، حيث تمثل النجاح الأكبر للجمعية في بناء المدارس الحرة عبر التراب الوطني، هذه المدارس التي يقول عنها الشيخ البشير: «نجوم متألقة في ليل الجزائر الحالك، منها الكبيرة والصغيرة، ولكل واحدة حظها من اللألاء والإشراق، وقسطها من الإضاءة لجانب من جوانب هذا الوطن الذي طال في الجهل ليله وأقام بالأمية ويله»[1].

وقد كانت عناية الجمعية بموضوع التربيّة والتعليم وفق استراتيجيّة مزدوجة، امتزج فيها التعليم التقليدي بالعلوم الأخرى، وأنّ هذه الاستراتيجيّة كانت تكمن في تعليم علوم الإسلام واللغة العربية مدعّمة بعلوم الحساب والمنطق والتاريخ والجغرافيا، فضلا عن الأنشطة الرياضية والثقافيّة، والصنائع اليدويّة...

بهذه الروح، وانطلاقا من الأهمية القصوى للتعليم والتربية، في مجتمع خيّم عليه الجهل وأناخ عليه بكلكله، رأت هذه النخبة من علماء الأمة أنه لا سبيل للنهوض بالأمة إلا بأمرين، أوّلهما: بإنشاء وتشييد المدارس، يقول الإبراهيمي: «أمّا إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق، فالتمسهما في المدرسة، لا في القصر، ولا في المصنع»[2]، وثانيهما: تزويدها بالمعلمين والمربين الأكفاء والمخلصين، المتسلحين بالعلم والخلق القويم، فالاهتمام بهذه الفئة يقع في بؤرة اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يقول الشيخ البشير: «أما دعائم هذا البناء التي تمسكه أن يزول، وتصونه أن يختل أو يحول، فهم أشبال الغاب وحماة الثغور، عمار المدارس، وسقاة المغارس، مربو

1- آثار الإبراهيمي، ج3، ص 258.

2- المرجع نفسه، ج3، ص 258.

الجيل وأئمته، وأبناؤنا المعلمون المستحقون لأجر الجهاد، وشكل العباد، الصابرون على عنت الزمان، وجحود الإنسان، وكلب السلطان (يقصد الاستعمار الفرنسي) هذه الطائفة هي عماد جمعية العلماء في أجل وظائفها»[1]، هكذا كانت نظرة الجمعية إلى مهمة التربية والتعليم.

إن ما يمكن أن نخلص إليه في عرضنا لهذه الملامح العامة لمشروع التربية الروحية والدينيّة والتربوية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أنّ هذه النواميس الأربعة في تعاضدها كالجسد الواحد شكّلت قوّة أثبتت لفرنسا أن حال الأمة الجزائرية أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا، في هويتها، وفي دينها وأخلاقها، و في لغتها، و في تعليمها.

الخاتمة:

الموضوع ذو قيمة علمية كبيرة، ويستحق مزيدا من العناية والاهتمام من قِبَلِ الفاعلين في الحقل التربوي، وما خلصنا إليه من نتائج نوجزه في الآتي:

- دور الكتاتيب فعال وبناء في زمن الاستعمار، وقد حل محل المدرسة الأساسية.

- عودة الكتاتيب إلى واجهة الحياة التعليمية في زمن الاستعمار منحت اللغة العربية دفعا، وحافظت على استمراريتها.

- اتخذت الكتاتيب طابعا تربويا إصلاحيا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

- نجاعة الكتاتيب مرتبطة بجعلها مؤسسة تخضع لقوانين وزارة التربية والتعليم.

- الكتاتيب بحر صبت فيه روافد التربية والتعليم والمجتمع.

- تعد الكتاتيب الحصن المنيع للحفاظ على الهوية الوطنية.

- استمرارية دور الكتاتيب إلى يومنا هذا في المدارس القرآنية المنتشرة عبر القطر يثبت أصالة الشعب الجزائري، وانتماءه الحقيقي إلى الإسلام والعروبة.

- الكتاتيب مرتكز المشروع النهضوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

1- المرجع نفسه، ج3، ص 261.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

الكتب:

1. ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، [د. ت]، م1.
2. آثار الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1997م، ج1.
3. آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينيّة، الجزائر، ط1، 1406هـ/1985م، ج4.
4. أندري روشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، تح: رابح اسطمبولي، ومنصف عاشور، الجزائر، [د. ط]، 1984م.
5. إيفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبية والدين 1830 - 1880) تح: محمد عبد الكريم أوزغلة، مراجعة: مصطفى ماضي، دار القصبة للنشر، الجزائر، [د. ط]، 2007م.
6. دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، مجموعة من المستشرقين، 1913م.
7. عبد الباسط دردور، أقطار المغرب العربي وتحديات الغزو الثقافي الغربي، دراسة وصفية تحليلية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى، طرابلس، ليبيا، ط1، 2002م.
8. عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، الجزائر، [د. ط]، 1984م.
9. عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف الأفكار، ط1، سلسلة الثقافة القومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
10. محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تح: حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة: محمد لعروسي المطوي، منشورات دار الكتب الشرقية، تونس، [د. ط]، 1972م.

المقالات:

11. محمد سي يوسف، العامل الديني في مقاومة الاستعمار الفرنسي، رسالة المسجد، ع: 08، السنة السادسة، شعبان 1429هـ/ أوت 2008م.

مواقع الإنترنيت:

12. سليم محجوبي، (2013م)، منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الاهتمام باللغة العربيّة، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، اطلع عليه: 2020/1/22م.

13. عبد جاسم الساعدي، (2000م)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتأثيراتها الفكرية في النهضة الجزائرية، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، اطلع عليه: 2020/1/22م.

14. علي الصلابي، (2018م)، جمعية العلماء المسلمين في الجزائر -مراحل النشأة والكفاح- من مقال نشر في//:https blogs.aljazeera.net/blogs، اطلع عليه: 2020/1/19.

15. علي محمد الصلابي، (2019م)، التخطيط الرشيد والرؤية المستقبلية لنهضة الجزائر في لقاء الشيخين ابن باديس والبشير الإبراهيمي، مقال إلكتروني على الرابط التالي: http://binbadis.net، اطلع عليه: 2020/1/22م.